

الإصلاح المسرحي

يروى الشاعر الفرنسي لافونتين في إحدى قصصه التي أوردها على لسان الحيوانات بأنه في يوم من الأيام أصيبت مملكة الحيوان بوباء مرض الطاعون، فكثرت فيها الضحايا وجرف منها الموت العدد الكبير. تجاه هول الكارثة تداعى أركان المملكة للتشاور في ما بينهم حول مسببات هذه اللعنة الإلهية عليهم يكتشفون الأسباب فيقومون بالتوبة ويقدمون القرابين فتُغفر ذنوبهم وخطاياهم، ويعودون إلى التمتع بالصحة والسلامة. وبعد تحديد الاعتراف العلني أسلوباً لاكتشاف الخاطئين، اجتمعت المملكة، وبدأ الأسد فاعترف بأنه خلال أيام جوعه كان يهاجم القطعان فيفترسها، وقد تخطى ذلك في بعض الأحيان فافترس الرعاة أيضاً. استهجن الحاضرون أن يكون ما قام به الأسد سبباً في إغضاب الآلهة، واعتبروا بأن ما فعل هو أدنى حقوقه الطبيعية.

وتوالى على الاعتراف النمر الذي روى كيف خرب قرى بكاملها، والفيل الذي كسح غابات واسعة، واعتبرت جميع أعمالهم عادية لا تستحق أن تذكر، ولا يمكن أن تشكل أي سبب استفزازي للعزة الإلهية كي تصب جام غضبها على مخلوقاتها.

ولما وصل الدور إلى الحمار تذكر انه في أحد الأيام الحارة، وكان جائعاً وعطشاً عند وصوله إلى أحد الحقول التابعة للدير، فأكل من قمحه عرض لسانه.

عند سماع هذا الاعتراف صرخ الجميع بأنه ارتكب المعصية الكبرى فانقضوا عليه وقتلوه كفارة عن جميع ذنوبهم واستنداراً لعطف الآلهة.

هذه القصة التي حفظتها على مقاعد الدراسة يذكرني بها الإصلاح الذي تقوم به الدولة في هذه الأيام.

يبدو أن الدولة المصابة بالطاعون، تغفر للأسد افتراس لبنان وأبنائه وورعته.

كما تغفر لعائلة السنوريّات تهديم قراه وتشريد أهله. وتترك الفيلة يكملون تهديم بيئته وتلويث مائه وهوائه.

تطمئن اللصوص فيتجولون بحرية في الشوارع والمنازل، وتزرع القلق في نفوس المطالبين بإعادة مقومات الوطن.

تنسى الإغراق الديموغرافي الذي أحدثه طارئيين لتساعد على هجرة الأصيلين.

تدعي احترام الحريات ولكنها تغدق النعم على المدّاحين، وتقمع الحريات وتفرض الحظر الإعلامي على المعارضين، والمراقبة الذاتية على الإعلاميين.

تتجاهل الأزمة الاقتصادية ولا تجرؤ على كشف أسبابها ومسببها الحقيقيين.

تدعي تحرير الأرض ولكنها تنازلت عن السيادة والاستقلال، وربطت أمنها ودفاعها بالاحتلال.

وتكتفي مقابل كل ذلك بالاقتصاص من الحمار الذي رعى من حقل الإدارة السائب أقل من عرض لسانه.

إنّ الاقتصاص من الفاسدين ضروري، وهو شأن القضاء وليس برنامجاً حكومياً يقوم على تواصل الفضايح من دون تحقيق إنجازات على مستوى الوطن.

لكل مسرحية نهاية، ومسرحية الدولة العاجزة انتهت قبل أن تبدأ لأنها تهرب من مواجهة الأزمات الحقيقية.